تاريخ اضطهاد النساء و ثقافة المجتمعات

القسم الأول

مدخل عن التأنيث والتذكير في اللغة

يذكر المفكر الراحل هادي العلوي في فاتحة كتابه القيم (فصول عن المرأة) "أن اللغات السامية من أكثر اللغات تمييزا بين المذكر والمؤنث ويتقاسم التأنيث والتذكير مفرداتها وأدواتها مناصفة وليس ذلك بسبب الحاجز الاجتماعي بين الجنسين كما يزعم الأكاديميون الغربيون الباحثون في أمور الشرق بأسلوب الصحف الشعبية -إنما يرجع ذلك إلى المكانة التي تمتعت بها المرأة في الحضارات السامية التي انبثقت من مجتمعات الهلال الخصيب المشاعية فحملت من منظومات المرحلة السابقة الشيء الكثير (...) ومن أهمها احتفاظ المرأة بمكانة انعكست في التشريع مثلما انعكست في بروز التأنيث في لغاتها"ص ١٠-

لطفية الدليمي

من اللغة ينطلق بحث المفكر هادي العلوي في قضية المرأة وباللغة يبرهن على حقائق تؤكد مكانة المرأة المتقدمة في المجتمعات الأولى للحضارات الشرقية السابقة لظهور الأديان ومن ضمنها حضاراتنا الرافدينية ثم يخبرنا وهو مؤلف (المعجم العربي المعاصر) "أن اللغة العربية وهي أكمل اللغات السامية وأحدثها تؤنث الكثير من مظاهر الطبيعة والمجتمع الكبرى كالشمس والسماء والأرض والحرب والسلم والقبيلة والدولة والحكومة والسوق وتؤنث جموع التكسير كلها "،وإلى هذا يشير القول المشهور لأحد النحاة مخاطبا المتشددين النحويين:

لأبالي بجمعكم كلُ جمع مؤنثُ

ونعلم أن نصف أعضاء الجسَم مؤنثة الأسماء ونصفها مذكّر وكذلك القاموس العربي نصفه مؤنث ونصفه مذكّر. لكن بعض النحويين المتشددين يقرر "لو كان هناك حشد من النساء يبلغ عددهن المئة وبينهن امرأة حامل فيجب تذكير مخاطبة هذا الجمع فقد يحتمل أن يكون الجنين في بطن المرأة ذكراً!!!" وينبئنا هذا الرأي المفرط في ذكوريته أن اللغة استخدمت لاحقا أداة تمييز عنصري صارخ ضد النساء باجتهادات النحويين المتشددين..

مدخل تاريخي حول أوضاع النساء

لم تكن المرأة مغيّبة أو مقصاة منذ البدء، بل أن عصورا أمومية مرّت على البشرية كانت فيها النساء مهيمنات على المشاعيات الاقتصادية الأولى، وكانت المرأة تمسك بزمام الأمور وتسيّر الحياة وتبتكر وتنتج دون قيود مسبقة من قبل المجتمعات المتضامنة الفقيرة،ولم تكن هناك جماعة مسيطرة أو شخص متحكم فالجميع كانوا يكدحون ويتقاسمون الناتج والغلال التي يجمعونها ولكن،عندما اكتشفت المرأة تقنية الزراعة تغير الوضع البشريّ وحدثت قفزات في مجال إنجاز المرأة وتبدلات في البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع البدائيّ، ثم أفضت المتغيرات الاقتصادية اللاحقة ونشوء بذور الدولة إلى تراجع تاريخي لدور المرأة..

لقد أنقذ ابتكار المرأة لتقنية الزراعة الجنس البشري من الفناء جوعا، وأحدث ثورة حضارية وثقافية كبرى، ووضع البشرية على منعطف مهمّ وساعد في تكييف الطبيعة وفق احتياجات الإنسان بدل أن يسعى الإنسان للتكيف مع أحكام الطبيعة..

ووضع (إنتاج القوت) حداً للحياة الهمجية وعصور الصيد وجمع القوت وانتهت أزمة الطعام، وعند هذا الانقلاب الحضاري بدأ دور المرأة ومنجزها الرائد في تغيير نمط العلاقة بين الإنسان والطبيعة وبين جنسي النوع الإنساني: الرجل والمرأة، فبعد أن كانت العلاقة بينهما علاقة اتحاد وتضامن إزاء الطبيعة تحولت عبر نشأة (الملكية الخاصة) التي أدت إليها الزراعة -إلى علاقة مالك ومملوك وسيد وعبد، وبدل أن يترسخ تحرر الإنسان من هيمنة الطبيعة، دفعت النساء ثمن اكتشافهن الزراعة عبودية عمل وكدح امتدت حتى يومنا هذا.

كان دافع المرأة لاكتشاف وتطوير الزراعة عرضيا أول الأمر فهي بمراقبتها تحولات الطبيعة خلال تعاقب الفصول، تعرفت إلى إمكانية إنبات البذور في التربة الرطبة بعد المطر وعندما نجحت في إقامة أول حقل لها انبثقت رغبتها في (الاستقرار) قرب هذا الحقل في مواطن شبه ثابتة وامتلاك مسكن يحمي من غضب الطبيعة ويعدها بالأمان، وهكذا استقرت الجماعة البشرية- التي كانت تطارد الفرائس وتجمع القوت من البراري - قرب مصادر المياه ومواطن المطر وغادرت الكهوف والمغاور..

وبتوفر القوت ظهر هناك فائض من الوقت لدى النساء، واستطعن رفد الحياة بكشوفات مهمة كتقنيات صنع الخزف والفخّار وتقنيات النسيج، مثلما بدأن في ابتكار أغان ترافق تلك الأعمال بمعنى قول الكلام المنغم -الشعر- فظهرت أغاني الحصاد وأغاني النسيج، مثلما استدعى صنع الخزف تطوير قدرات فنية أخرى لديهن كالرسم على الأواني وتشكيل زخارف ورموز من تفاصيل تلك الحياة البدائية كشفت عن ملامح ثقافة نسوية وطرائق تفكير النساء وأحلامهن ومخاوفهن ونظرتهن إلى العالم من حولهن وأحاسيسهن الأنثوية إزاء الجمال والفن..

وفي فائض الوقت بدأ الرجال بتطوير السلاح من حجر الصوان وظهرت أدوات جديدة تستخدم في الدفاع عن المستوطنة التي بدأت تتعرض لغارات من جماعات بشرية مترحلة لم تعرف الزراعة - فتقدم الرجال ليحتلوا مقدمة المشهد دفاعا عن المحاصيل والبيوت واستدعت الحاجة إقامة أول سياج حول أول مستوطنة وحقل ونشأت فكرة الملكية الخاصة ثم حراستها التي أفضت إلى ظهور منازعات وغزوات، وعندما توفر فائض من الإنتاج ظهر نشاط تبادلي تجاري جعل من المزرعة مصدرا لاقتصاد العشيرة أرغمت النساء على العمل المضني في الحقول والمنزل وبدأ عصر قنانة النساء فدفعن ثمن اكتشافهن الزراعة عبودية وكفاحا يوميا مدى الحياة وانتقل المجتمع من واقع (الشراكة) بين الجنسين في عصر جمع القوت إلى هيمنة النظام الأبوي والاستقطاب الذكوري واستخدمت أعداد هائلة من النساء في أعمال الحراثة والزراعة والحصاد وتحمّلن على مدى آلاف السنين (تبعة) اكتشافهن الزراعة وعبودية العمل المضني.

وفي مراحل عبادة الخصب دفعت النساء أرواحهن ودماءهن لاستجلاب الخصب والوفرة وقدمن كقرابين أو نثرت دماء الحيض على خطوط الحراثة لضمان الخصوبة ووفرة الغلة..

ثورة الزراعة إذن أدت إلى ظهور (الاستقرار) وابتكار (الفنون) والى نشوء (التجارة) التي كرست استعباد أعداد هائلة من النساء، وتوجت بظهور نظام الدولة- المدينة التي أعادت المرأة إلى أدوارها الأولية وحالت بينها وبين تواصل جهدها الإبداعي المبكر..

لكن وجود آلهة مؤنثة تمثل الجنس والخصب والحب أعاد إلى حدّمّا المكانة الاعتبارية للنساء في بعض الحضارات ثم أزيحت عندما اقتحم الآلهة الذكور بانثيون الأرباب قبل أن يتوحدوا في إله ذكر واحد..

إن أية حضارة ما كانت لتدوم وتزدهر لولا جهود جموع النساء وإبداعهن وشراكتهن مع الرجال، وطوال العصور تراوحت مكانة المرأة بين تمجيد وتبجيل تارة وبين إقصاء وازدراء تارة أخرى، ورغم إبداع النساء المشهود، أهمل التاريخ وتجاهل المدوّنون ذكر النساء البارزات في مجالات الإبداع والحكمة والكتابة إلا في حالات نادرة تكون فيها المرأة من طبقة متنفذة فيذكرها مدوّنو الحوليات ونحّاتو المسلات كالملكات والمحظيات المقربات من العرش، ولم يذكر التاريخ المدوّن من الشاعرات في الحضارات الرافدينية - سوى الشاعرة الأكدية الأميرة (انخيدوانا) ابنة الملك سرجون الأكدي التي تجرأت ودونت اسمها على قصيدة (سيدة النواميس الإلهية) بحكم نفوذها، فكم من مبدعة وشاعرة وفنانة تجاهلها المدوّنون المحكومون بالرؤية الأبوية التي تقصي النساء من الذاكرة الإنسانية..؟؟

لقد تعاضدت عناصر متعددة لتعزيز التمييز ضد المرأة في المجتمعات القديمة والمجتمعات المعاصرة على حد سواء ومن أبرزها وأهمها وأكثرها تأثيرا: البطرياركية والاقتصاد الريعي والجينوفوبيا سأتحدث عن هذه العناصر تفصيلا في الحلقات القادمة..

(يتبع)

تلويحة المدى

■ شاكر لعيبي

الاكتفاء الذاتي ثقافياً

يبدو أن اكتفاءً ذاتياً على المستوى الاقتصادي هو أمر مطلوب، حتى في زمن العولمة، لكن الاكتفاء الذاتي على المستوى الثقافي لا يبدو إلا سمة تسم الأنظمة الشمولية في المقام الأول. إنه رديف للانغلاق على الذات، وانطواء على حصص محددة سلفا من الوعي، وشعور بالكفاية التي نقتطع شريحة منتخبَة من المنتج اللامتناهي، بالغ التنوّع والتعقيد والتناقض المسمى ثقافة، وتعتبرها الثقافة كلها.

جميع البلدان الشيوعية كانت تُعْلن هذا الاكتفاء إلى درجة أنها ظلت تُنتج حتى المفاهيم الثقافية الخاصة باكتفائها الذاتي، مثل مفهوم الواقعية الاشتراكية.

وإذا ما استبعدنا بعض الأسواق العربية الكبرى، المكتفية ذاتيا في توزيع واستهلاك منتجاتها الثقافية مثل مصر، فإن التجربة في العالم العربي تدل على أن الأنظمة الديكتاتورية القمعية فيه، توطن مفهوم الاكتفاء الذاتي الثقافي تحت ذرائع شتى، وتسعى إلى إقناع اللاعبين الثقافيين بأن مثل هذا الاكتفاء يصب لصالح الجماعة الوطنية، بل هو رديف لمنافعهم الشخصية نشرا وترويجاً ومكافأة مالية من دون منافسين مزعجين قادمين من آفاق بعيدة أخرى.

من أول تمظهرات هذا الاكتفاء الثقافي ممارسة الرقابة على الصحافة والتنظيم الحديدي لسوق الكتاب، إلى درجة أننا شهدنا في بلدان مثل العراق وسوريا اختفاء أي صحافة غير صحافة الحزب الحاكم. وإذا ظهرت صحافة أخرى فأنها مراقبَة إلى حد صارم لا يمكن سوى أن يجعل منها نسخة محسّنة مزوّقة من الصحافة الرسمية. أما سوق الكتاب فإنها تخضع إلى عيون رقابية لا ترحم فلا تسمح إلا بالكتب التي تلائم مشروعها.

في مثل هذه العملية تُمارَس عملية "تجهيل" واسعة النطاق للجمهور العريض من أجل بقاء المفاهيم التي تتبناها السلطة. وبدلاً من الثقافة المنفتحة الحرة، تشيع ثقافة مراقبَة، مغربَلة، منتخَبة وفق منظور خاص، ثقافة مقتنعَة بنفسها، تود إقناع جمهورها أنها تمثل خير ما في ثقافات العالم لذا فهي تستبعد الفاسد الرديء، المسيء إلى أمتها وحضارتها، وأنها تغلق المنافذ على المتسللين لإفساد العقول،. وقد يصل هذا الاكتفاء الذاتي إلى درجة مشروع "ثقافة بديلة" تقوم بعملية انتقاء تلفيقي من ثقافات العالم، أو تروج على أوسع نطاق لممارسات ثقافية غير تلك المقروءة والمكتوبة، مثل ثقافة كرة القدم في تونس، وأكل القات في اليمن، وما إلى ذلك.

إن ثلاثين عاما من هذا الاكتفاء الذاتي الثقافي والاستبعاد والرقابة، اللصيقة كلها بقمع الأنظمة الشمولية وأنظمة الحزب الواحد، كفيل بخلق جيل أو اثنين من "المثقفين" المحليين من طراز خاص. من أوضح الأمثلة على اكتفاء ذاتي خلقه نظام شمولي، ما يمكن أن يشهده المرء في البلاد التونسية. من باب الطرفة قلتُ مرة، تعبيراً عن هذا المأزق، لصديقي صلاح بن عياد إن الجغرافية التي يتحرك فيها جل مثقفي العاصمة تونس تمتد طولاً من نصب الساعة في أقصى شارع الحبيب بورقيبة إلى بورت دوفرانس المؤدي، في نهاية الشارع، إلى سوق القصبة القديم. على مسافة كيلو متر واحد تقريبا، يعيش أولئك المثقفون برخاء واكتفاء ذاتي صاف بعيدا عن صخب الثقافة في العالم، وعن أمثولات كبار أساتذتهم التوانسة وبعض مجايليهم الذين خرجوا بجسارة وحرية إلى الفضاء الرحب. بن عياد نفسه يكتشف الآن مندهشاً أن بعض المثقفين والمحررين الثقافيين لا يعرفون مثقفا مثل سليم بركات. هذه واحدة من نتائج الاكتفاء الذاتي الثقافي الذي وطده نظام بن علي.

في العراق أيضا وصل الاكتفاء الذاتي لثقافة النظام السابق إلى درجة أن جيلا كاملا من شعراء البلد لا يعرف جيلا كاملا سابقا خارج البلد. ما زال البعض حتى اللحظة في إطار وعي الاكتفاء الذاتي السابق عينه دون أن يدري.

في التضييق على حرية الابداع

أسلاب الأنظمة الدكتاتورية ونزعة التسلّط

باقر جاسم محمد

كان الربيع العربي مظهراً من مظاهر حيوية الشعوب العربية. وقد أظهرت الأحداث التي دشنت الفعل الثوري الحقيقي في تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا على أن الشعوب تستطيع أن تطيح بالطغاة حين ينكسر حاجز الخوف. وهكذا رأينا الأنظمة التي كانت تراهن على خنوع شعوبها تنهار الواحد بعد الآخر. والحقيقة التي لا مراء فيها أن الوطن العربي يشهد حالة تغيير لم تفصح بعد عن أبعادها الكاملة. ومن هنا فإن الخوف كل الخوف هو من أن تتحول تضحيات الشباب العربي الذي أنجز ثورات العربي إلى مرحلة جديدة للدكتاتورية التي أفصحت عن نفسها في مسألة هيمنة الجماعات الأصولية على نتائج الانتخابات التي جرت حتى الآن. فهذه الجماعات منظمة على نحو جيد، بينما يفتقر الثائرون الشباب إلى التنظيم وإلى القدرات القيادية التي تمكنهم من طرح أنفسهم على أنهم بديل مناسب لعهود القمع والتغييب لإرادة الشعوب. لذلك فإن أسلاب تلك الأنظمة المنهارة ستذهب إلى الجماعات التي انتظرت بفارغ الصبر أن تنضج تفاحة الحكم وتسقط في يدها.

ولو أخذنا الحالة المصرية، فسوف نقرأ في الأخبار أن الجماعات التي تسنمت قيادة الهيئات التشريعية فيها ما زالت تناور من أجل اجتياز هذه المرحلة الصعبة وتثبيت أركان حكمها وإحكام سيطرتها على السلطة السياسية، ومن ثم الانتقال إلى مرحلة قطع الصلة بهذا الاختراع الشيطاني المستورد الذي يطلقون عليه الديمقراطية. فما هي إلا فترة قصيرة، وما أن يهدأ الشارع، ويتم تنظيم الأجهزة القمعية على نحو يوالي النظام الجديد، وتتم عملية تجريد الشارع من زخمه الحالي، فإن هذه الجماعات تملك الأغلبية البرلمانية التي تمكنها من تمرير ما تريد من قوانين وأنظمة. وهي في الوقت نفسه تملك السلطة التنفيذيه، ولديها قناعة راسخة أنها تنفذ إرادة عليا مقدسة، لذلك، لن يطول الوقت حتى يخرج علينا أحد الفقهاء بفتوى تفيد بأن الخروج على ولي الأمر، الذي صار فقيهاً الآن، أمر محرم شرعاً، وهو يوجب إيقاع العقوبة المعلومة على الخارجين على ولاة الأمور في التاريخ الإسلامي! وهنا، أتوقف لأقول، أتمنى لو كنت على خطأ!

لكن الأخبار تشير إلى أن علينا أن نتوقع الأسوأ، فقد جرى تسريب خبر تحريم تداول كتب نجيب محفوظ، وهي روايات وقصص تتناول التجربة الاجتماعية للشعب المصري من زاوية إنسانية. وأنا أعلم أن في الأمم قلائل ممن هم بمنزلة هذا الروائي الكبير الذي كان إبداعه طوال سبعين عاماً موضع تقدير واحترام على مستوى العالم. وهو كاتب فضح الفساد والمفسدين، كما كانت له وقفته الشجاعة بوجه الدكتاتورية في بلاده. وقد كشفت أعماله عن الأبعاد الإنسانية لمعاناة الإنسان المصري. إذن، فليحذر الكتاب، ولاسيما الروائيون والمسرحيون وكتاب السيناريو، من الآن فصاعداً من أن يتناولوا بحرية الموضوعات التي دارت حولها أعمال محفوظ لأن مصيرهم سيكون أسوأ من مصير شيخ الرواية العربية.

ترى، هل تومئ هذه البداية إلى القادم من الخطوات التي نتوقع أنها سوف تبدأ بمحاسبة الناس على ما في ضمائرهم. ومرة أخرى، نجد أن الأخبار تؤكد هذا المنحى، فالفنان عادل إمام يسجن على أعمال قد لا نتفق معه على محتواها الفكري، ولكن أيجوز أن يسجن المرء على رأي أدلى به؟ وأين هي حرية التعبير؟ ثم، ألا تنص القاعدة القانونية على أن لا عقوبة إلا بنص سابق لارتكاب الجرم؟ وإذا سلمنا جدلاً أن في أعمال عادل إمام ما يسيء إلى الدين الحنيف، وهو أمر لم يثبت بعد، فإن هذا الفعل لا تقرره المحاكم العادية لأن الفن يتحمل الاجتهاد في التفسير. وهنا، أود أن أشير إلى أنني أعتقد أن معاقبة الفنان عادل إمام ليست سوى بالون اختبار لمعرفة رد فعل الشارع المصري، فإذا ما سكت الناس على مثل هذه الممارسات، فإن القادم سيكون أكثر سوءاً.

وما زالت الأخبار تحمل في طياتها الكثير، ففيها أن الأوامر قد صدرت بتغطية التماثيل كافة، قديمها وحديثها، بوصفها "نصب و أصنام" قد تعيد المرء إلى الوثنية، ولينذهب فن النحت والنحاتون إلى جهنم وبئس المصير. ولو صح هذا الخبر لكان فرية عظيمة بحق الشعب المصري الذي ندرك جميعاً أنه شعب مؤمن بالله أعظم الأيمان.

لا شك أن الصمت على مثل هذه المقدمات السيئة سيؤدي إلى دخولنا في عصر مظلم جديد لا تعرف له نهاية. أليس كذلك؟

قصيدة إلى أميليو غارثيا غومث

للشاعر: رفائيل ألبرتي× ترجمة: د. صفاء برهان

وتشرقُ شمسُ الصباحِ منقّبةً،
كأنها تحمل أجنحة نعَامة،
والمطرَ الرقيقَ يغشى الحديقةَ،
بنسيجٍ رقيقٍ تحكبه خيوط،
وجيوشُ الهتُونِ السودِ المحمّلةِ
بالمياه،
وهي تستعرض بعظمة تحاكي
قوات أثيوبية،
مدججّة بجيوشِ البرقِ
المذهبّة.
وقتئذ...
أعاودُ أنا إلى الأندلس،
وأدخل بمعونتك،
وبمعونة هؤلاء الشعراء المجيدين،
إلى غرناطة... ومن سوق الثياب.
مثل الملك العربي،
ارتقي أبراج الحمراء،
ومن هناك...
أطفق في الاحتفاء بشاعر أندلسي،
أُقصي، وعاشَ منفياً عن وطنه..
مثل المعتمد سيد إشبيلية.

والآن...أبوحُ من روما،
لأميليو غارثيا غومث، في أعوامه
السبعين:
يقيناً إني لم أرحلْ إلى غرناطة،
ولستُ أعرفُ أمراً عن حيّ البيّازين،
كما لا أدرك ألوان نهرِ الدارو،
وإني لم أتنوّرْ من ذلكَ القصيِّ،
الربوةَ الثلجيةَ،
ولا غُوطة غرناطة أبدا،
ولا الباخراس.
كذلك...
إني لم أديلْ مطلقا إلى قصر الحمراء،
ولا حتى في السهاد،
حتى إني لم أدخل أبداً قصر الحمراء..
ولكن...
وقتما تهدلُ اليمامُة على غصنِها الميّاد،

× من شعراء إسبانيا العمالقة، ولد في ميناء سانتا ماريا بقادس الأندلسية، بدأ سريالي النزعة، ثم تحوّل إلى الالتزامية، له من الدواوين ملاح على الأرض، جبر وغناء، بين القرنفل والسيف، كتب هذه القصيدة وهو في المنفى بروما، بمناسبة نشر غومث عددا من الكتب حول الثقافة الأندلسية.